الأثر التغريبي في الفن الروائي النسائي

بحث مقدم إلى مؤتمر " الملتقى الدولي الثاني للأديبات الإسلاميات"
عمان ٦-٧- ٢٠١٣ الموافق ٢٤-٢٥ ربيع الثاني ١٤٣٤

د. نهى القاطرجي

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يعتبر الغزو الفكري سلاحاً من أهم أسلحة الحيلة والخداع التي يستخدمها المستعمِر من أجل ضمان النصر على العدو وإحكام السيطرة عليه من جهة، وضمان إتباع الهزيمة العسكرية بأخرى فكرية من جهة أخرى. لهذا نجد هذا المستعمر يحرص كثيراً على بناء وتكوين الأدوات التي تعينه في مهمته تلك، والتي من أهمها : تشييد المدارس والجامعات المرتبطة بالمستعمر بالمال والمناهج، ونشر المذاهب الفكرية الغربية ، والعمل على إثارة الشبهات حول المعتقدات والأديان .

وقد أعانهم في مهمتهم هذه كثير من الأدباء ممن حمل لواء تلك المذاهب الهدّامة، وآمن بها، ودافع عنها، حتى بعد سقوطها واندحارها. ولعل أشهر هؤلاء الأدباء على الإطلاق "نجيب محفوظ" الذي حظي بعناية خاصة من الغربيين، وترجمت مؤلفاته إلى لغات عدة كما نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨م.

وفي محاولة لبيان نتائج هذا التغريب على الفن الروائي بشكل عام والنسائي بشكل خاص، يمكن تقسيم هذا الأثر إلى عدة أقسام :الأثر التغريبي في الأدب العربي وفي اللغة العربية وفي تطور الكتابة النسائية ، وفي مفهوم الأدب النسائي ، وفي المفاهيم والقيم .

أولاً: الأثر التغريبي في الأدب العربي

تعتبر كلمة التغريب Occidentalisation كلمة مستحدثة في العربية لم تستخدم إلا في القرن العشرين الميلادي نتيجة الإحساس العام بالهزيمة الذي طاول كثير من الأدباء والمفكرين العرب الذين "سلّموا بتفوق الإرث الحضاري والثقافي للغرب" .

وكان من نتيجة هذا الإحساس المتشابك بالهزيمة النفسية وبالتفوق الغربي أن بدأت الدعوة التغريبية تأخذ منحاها في كل جانب من جوانب الحياة، وكانت أشد ظهوراً في الحياة الأدبية التي كانت مرآة حقيقية تعكس مدى نجاح هذه الدعوة في السيطرة على العقول . وقد تجلى هذا التغريب في الأدب العربي بشكل عام، والفن الروائي والنسائي بشكل خاص، بما يلي:

١- العودة بمعنى الأدب إلى العصر اليوناني القديم الذي كان ينكر وجود أي ارتباط للأدب بالقيم والأخلاق. يقول الكاتب الإنجليزي "أوسكار وايلد" مبيناً هذا المعنى: "ليس هناك "كتاب أخلاقي" وكتاب "منافٍ للأخلاق" إنما الكتب إما جيدة الصياغة وإمّا رديئة الصياغة .

٢- إضافة فن القصة والرواية إلى فنون الأدب العربي، إذ إن العرب لم يجدوا فيما مضى في "القصة وسيلة للتعبير عن مشاعرهم أو تصوير وجدانهم، وقد تحقق لهم ذلك بأوفى نصيب عن طريق النثر والشعر، ولذلك فإن القصة كانت وما تزال دخيلة على الأدب العربي" .

٣- الدعوة إلى وَحدة "الأدب العالمي" الذي يتخطى الحدود ويعبّر عن نفسية الشعوب أجمعين، بمعزل عن أي ظروف أو خصوصية شخصية، لهذا لا يجيز المدافعون عن هذا الأدب لأي شعب من الشعوب أن يرفضه أو يناقشه، بل يقبله كما هو، وإن لم يفعل كان جامداً أو رجعياً أو جاهلاً.

ثانيا: الأثر التغريبي في اللغة العربية

لم تكن الهجمة على اللغة العربية هجمة حديثة بل هي ترافقت مع الاستعمار الغربي للبلاد العربية الذي نجح في إيجاد أعوان له من المستغربين من بعض المسلمين والنصارى الحاقدين الذين دعوا إلى القضاء على اللغة العربية كما قُضي على اللغة اللاتينية من قبل .هذا وقد كانت حرب الأعداء والأصدقاء على اللغة العربية حرباً متعددة الجبهات، ومن بين هذه الجبهات :

أ- جبهة تعمل على استبدال اللغة العربية باللغات الأجنبية في المدارس والجامعات .

ب- جبهة تدعو إلى استبدال اللغة العربية الفصحى باللغة العامية الخاصة بكل بلد . ومن بين من استخدم هذا الأسلوب الروائية الماركسية المصرية "لطيفة الزيات" ، والكاتبة اللبنانية مي المر، تلميذة الشاعر سعيد عقل الذي دعا الى استعمال الحرف اللاتيني بدل الحرف العربي.

ج- جبهة تستخدم الكتابة الأجنبية في التعبير عن قضايا وهموم المجتمع العربي، ويكثر هذا النوع من الكتابات عند أدباء بلاد المغرب الذين تعرضوا أكثر من غيرهم للتغريب اللغوي، لهذا لا يُعد أمراً مستغرباً أن تعلن الكاتبة الجزائرية "آسيا جبار" عن عدم قدرتها على التعبير عما تريد باللغة العربية بدل الفرنسية التي تتقنها .

د- جبهة نسائية تدعو إلى تأنيث اللغة وتخليصها من طابعها الذكوري الذي ظل مرافقا لها طوال العهود والقرون السابقة، ويعد كتاب "زليخة أبو ريشة" "اللغة الغائبة: نحو لغة غير جنسوية ١٩٩٦م."، خطوة جريئة في هذا المجال، لكونه أول كتاب عربي يدعو إلى "تخليص اللغة العربية من صفاتها الذكورية الطاغية أي جعلها لغة غير جنسوية (غير متحيزة للرجل) " .

ثالثا: الأثر التغريبي في تطور الكتابة النسائية

بدأت المرأة العربية الكتابة الفعلية مع بداية عصر النهضة ومع ظهور عشرات المجلات العائلية الاجتماعية التي قامت بتأسيسها بعض النساء. وكان من أبرز الكاتبات اللواتي اشتهرن في ذلك العصر وكان لهن دور فعال بل ورائد في كتابة القصة: أليس بطرس البستاني، وزينب فواز، ومي زيادة . ...وقد مرت الكتابة الأدبية النسائية بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى (١٨٥٠-١٩٥٥)م.:

تم الربط في هذه المرحلة بين نهضة المرأة ونهضة الأمة، وقد بدأت هذه المرحلة مع صدور الصحافة النسائية وتكرست على يد قاسم أمين (**١٨٦٣-١٩٠٣**) م.، عبر كتابيه (تحرير المرأة ١٨٩٩م.، المرأة الجديدة ١٩٠٠م.) .

ويظهر في هذه الفترة بوضوح التأثير الفكري الماركسي الشيوعي الملحد، ورائدة هذه المرحلة "لطيفة الزيات" حيث تعتبر روايتها "الباب المفتوح" تجسيدا واقعيا لهذا الفكر.

المرحلة الثانية (١٩٥٦-١٩٧٤) م

يظهر في هذه الفترة على الصعيد الأدبي مدى تأثر الأدب النسائي بالحركات النسوية التي ظهرت في بعض الدول الغربية والتي وجدت في الإباحية سبيلاً لإثبات حريتها واستقلالها. ومن نماذج هذه المرحلة "ليلى بعلبكي" التي برزت في كتاباتها المنفتحة، "وأهمها كتاب"أنا أحيا" ١٩٥٨م.، الذي يدعو المرأة إلى الامتناع عن تأدية أدوارها التقليدية.

المرحلة الثالثة (١٩٧٥_حتى الآن) برز في هذه المرحلة التأثير البالغ للبعد الدولي بخصوص قضية المرأة في إطار ما عرف بظاهرة العولمة والتي رعتها الأمم المتحدة. ومن نماذج أديبات هذه المرحلة الدكتورة "إلهام منصور" في رواية "أنا هي " التي تتصدى فيها لموضوع العلاقات المثلية كواحد من الحقائق التي لم يعد ينبغي السكوت عنها.

رابعا : الأثر التغريبي في مفهوم الأدب النسائي

كان لتطور المرأة وتغيير دورها، عبر المراحل التاريخية التي ورد ذكرها، أثره في تطور نظرة الأديبة إلى أدبها وكتابتها. وقد كان من نتيجة هذه النظرة أن ظهرت ثلاثة أنواع من الاتجاهات الأدبية النسائية: الاتجاه الوحدوي، والاتجاه النسائي، والاتجاه النسوي .

أ- الاتجاه الوحدوي في الأدب

لم يكن كل الرافضين لفكرة تأنيث الأدب من النساء والرجال من أعداء تحرير المرأة ومساواتها بالرجل، بل إن المتتبع لهذا الرفض يجده في الغالب صادراً عن بعض الأديبات اللواتي كرّسن حياتهن لخدمة قضايا المرأة، ولكن كانت حججهن في الدفاع عن هذا اللاتجاه متنوعة، منها:

١-صعوبة التصنيف الجنسوي للأدب وذلك انطلاقاً من الوحدة الموجودة في اللغة وفي القضايا الإنسانية . ومن هذه النقطة ينبعث دفاع بعض الكاتبات اللواتي يرفضن تسمية ما كتبنه "أدب نسائي" بل ويُصرِّن على تسميته "أدب انساني"، ومن بين هؤلاء "أحلام مستغانمي" التي ترفض أن تحاكم أعمالها ككاتبة أنثى ، وتعتبر مصطلح "الأدب النسائي" نوعاً من الإهانة للمرأة.

٢- انعكاس خطورة هذه التفرقة على قضية المرأة نفسها، إذ تبيّن لبعض الأديبات أن تضخيم قضية الإبداع النسائي وإيلاءها الأهمية القصوى إنما هو مخطط جهنمي يؤدي إلى عزل إبداع المرأة خارج السياق العام للأدب. وتشير الكاتبة "نعمات البحيري" إلى خطورة هذا الفعل محذرة بأن "الرجل لم يعد يملك أن يسجن إبداع المرأة، ولكنها هي التي صارت تملك إبداعها " .

٣- كذب ادعاء البعض من أنصار الأدب النسائي بأن المرأة أقدر على التعبير عن احتياجاتها من الرجل، ذلك لأن الأدب الحق لا يفرق بين الأنوثة والرجولة، تقول الروائية السودانية "بثينة خضر مكي" مبينة هذا المعنى: "إن الروائيين الرجال كتبوا حتى فيما هو تجارب نسائية، كالمخاض مثلاً، أفضل بما لا يقاس من النساء لذلك لا أجد أي حَوْجَة لكتابة نسائية".

٤- الخشية من الموروث الثقافي الذي يحقر أي عمل تقوم به المرأة ويجعله عديم النفع. الأمر الذي يؤدي إلى إصدار أحكامٍ مسبقة على كتابتها. ولهذا رفضت "لطيفة الزيات"على سبيل المثال إدراج أدبها في قائمة الأدب النسائي خوفاً من احتقار إنتاج المرأة ومقارنة تجربتها بتجربة الرجل.

ب- الاتجاه النسائي في الأدب

يعتبر مصطلح "الأدب النسائي" مصطلحاً عاماً وواسع الدلالة، فهو يمكن أن يدل على الأدب الذي تكتبه المرأة فقط، كما يمكن أن يدل على الأدب الذي تكتبه النساء والرجال عن المرأة من أجل أن تستهلكه المرأة، ويمكن أن يدل على الأدب النسوي Feminist Literature والذي يصدر عن خطاب الحركة النسائية، وصراعها من أجل تحرير المرأة وتحقيق المساواة بين الجنسين على كل الأصعدة.

ج- الاتجاه النسوي في الأدب :

بدأ ظهور مصطلح "الأدب النسوي" أو "الأنثوي" في الغرب في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين الماضي. أما في الساحة الأدبية العربية فلم يلق هذا المصطلح اهتماماً إلا في أواخر الثمانينيات والتسعينيات ، وتجلى هذا في اهتمام الأدب النسوي بكتابات المرأة حاضراً وتاريخاً، فانبثقت الدعوات إلى التخلي عن لفظة تاريخ باللغة الإنجليزية history واستبدالها بلفظة her story وبالتالي إعادة كتابة التاريخ من وجهة نظر نسائية.

خامساً : الأثر التغريبي في المفاهيم والقيم

ارتبطت دعوات الحرية في الكتابة النسائية بدعوة بعض الكاتبات الغربيات. وقد كان لهذه الدعوات العالمية، صداها لدى بعض الكاتبات العربيات اللواتي تبنّين بعض مفاهيم الغرب الفكرية والعَقَدية والاجتماعية، وضمّنوها كتبهن، ومن المفاهيم الفكرية التي لاقت رواجاً كبيراً الحرية الفكرية وما تمثله من دعوات إلى إطلاق العِنان للفكر من دون وجود أية ضوابط. فدافعت كاتبات " الأدب النسائي " عن حقهن في التعبير عن تجاربهن الخاصة بكل حرية وإباحية، وبدون حياء من مخلوق أو خوف من خالق، فانتشر نتيجةً لذلك ما يسمى بالأدب الجنسي او الأدب المكشوف.

أما المفاهيم العَقَدية فقد تنوعت في تلك الكتابات بدءاً بالشعور بعبثية الحياة ، وانتقالاً إلى العلمنة، وانتهاءً بالكفر والإلحاد الذي رفعت لواءه بعض الكاتبات النسويات من أمثال نوال السعداوي التي اشتهرت بأفكارها الإلحادية.

وأخيراً جاء تأثير الغرب على المفاهيم الاجتماعية والتي من بينها تلك التي تتعلق بالمرأة ودورها في المجتمع ورفض الأدوار النمطية، حيث ظهر كثير من الأعمال الأدبية التي اتخذت من حقوق المرأة ومطالبتها بالمساواة مادة أساسية لها. ومن الأدبيات اللواتي تناولن هذا الجانب " نازك سابا يارد " .

الخلاصة

كثيرة هي الأسباب التي دفعت المرأة العربية المسلمة إلى تقليد المرأة الغربية، ونقل معرفتها النسوية إلى مجتمعاتها، فإضافة إلى عوامل التغريب التي تعرض لها المجتمع ككل، هناك عنصر مهم لا يمكن إنكاره، ألا وهو إحساس المرأة بالحصار والإحباط، واتهامها الرجل والدين والمجتمع بإيجادهما. لذا نجح أعداء أمتنا في الدخول من هذا الباب إلى عقلية وتفكير المرأة والتأثير عليها ،وإقناعها بأنها إن أرادت الحصول على حريتها لا بد من أن تتبع خطى المرأة الغربية وتتبنى الأفكار والمفاهيم التي ساعدتها على التخلص من تسلط الرجل والدين على حد سواء .

من هنا تأتي أهمية الوقوف وقفة محاسبة وتأمل وإدراك لماهية الحرب على الهوية والتراث واللغة التي يقودها أعداء الخارج والداخل من أجل طمس الهوية العربية الإسلامية وضمان احتلالها كاملة. وأكبر دليل على ذلك هو اشتغال أكثر من دار نشر عربية هنا وفي أوروبا على إعادة طبع ونشر كتب تراثية أو معاصرة تختص بالايروتيكا، والشبقية الرخيصة ،والشذوذ الجنسي.

د. نهى القاطرجي
بيروت– لبنان